تجليات العنف في المقدسات الشعبية

أ. لباد الغالي

طيلة عقود طويلة من القرن المنصرم لم يكن الحديث عن العنف قويا وصارخا في الحياة مثلما يحصل اليوم، لم يشكل حملة السلاح قوة ضاغطة سياسيا أو فكريا طيلة تلك العقود فقد ظهرت عدة نتائج لهذا التطور حاصل في ميدان العنف البشري. فمثلته الحروب الماضية خير تمثيل وشهدت أوربا كثيرا من التحولات سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي كما ظهرت صراعات اجتماعية عديدة دعت إلى الحب والسلام.

لم يقتصر تعريف العنف على الحركات السياسية فحسب، إنما خاض فيه كثير من المؤلفين والمفكرين من بينهم:"بشير البحرافي" العنف والإرهاب وجهتان لعملة واحدة وهما مصطلحان يشيران إلى الأعمال الإجرامية التي تكون سببا في إيذاء الناس سواء بالضرب أو القتل أو غير ذلك. وإن كان لكل منهما خصوصية يدل عليها بذاته؛ فالعنف كمفهوم يلقي ظلالا أخف على النفس من مفهوم الإرهاب الحديث حيث يوحي للناس أن الرجل العنيف أخف، في إجرامه من الرجل الإرهابي. من خلال هذا التعريف ونظرا للأزمات السياسية التي تعيشها البشرية جمعاء في الفترة الراهنة.

أما **زكي الميلاد** فيري: العـــنف هو نمط من السلوك يتصف باستعمال القوة أو الإكراه أو الضغط أو الخشونـــة في سبيل الوصول إلى غايات وأهداف معينة، وهذا النمط من السلوك قد يمارسه الفـــرد أو الجماعة أو الدولة ويمكن أن نصنفها إلى تقسيمات عديدة كالعنف السياسي والفكري والاجتماعي إلى غير ذلك." أما علي عبد الرضا" فله وجهة خاصة في تعريفه للعنف:" العنف هو غلق كل الأبواب والإبقاء علي باب واحدة، اتخاذ أسلوب واحد في مواجهة مشاكل عديدة الحصر على العقل وجعله لا يفكر إلا في بعد واحد فقط، وسيلة المستعجلين لاقتطاف الثمار قبل أوانها، السير عكسه الإتجاه سيطرة الجهل. أما " محمود الموسي" : فيعتمد في تعريفه على "الدين" الإسلامي . كلبنة ينطلق منها ليعود إليها يريد تبرئة السلوك الإسلامي مما يشار إليه. "هذه المفاهيم الثلاثة تشكل معادلة معاصرة تكون تحديا حضاريا مهم من التحديات المعاصرة أمام الفكر الإسلامي وأمام المفكرين الإسلاميين، إذ أخذت الفترة

الغربية بكافة أطيافها العنف، والإرهاب كإشكالية مهمة لمجابهة الإسلام، ورفض قيمه وهي إشكالية مفتعلة من قبل القوى المهيمنة على العالم قامت بأخذ عينات مريضة من الجسم الإسلامي لتعميمها على الإسلام ككل وعند معالجتنا لهذه المعادلة بصورة واضحة وفق الخطاب الإسلامي الأصيل فهذا يعني أننا بلا أدني شك نكون قد تغلبنا على هذا التحدي الحضاري[1].

وقد تبني "مصطفي السيد" نفس التوجه حيث يقول :" لا شك أن الإسلام دين الوسيطة ومع ذلك فهو يرفض العنف بصورته السلبية، ولكن أحيانا قد يُتخذ من العنف وسيلة وإن كانت في ضمن مجالها الدفاعي إلى العنف الدفاعي. كما أن اللاّعنف ركيزة أساسية قام عليها الإسلام[2]. أما مفرضة الإرهاب فهي تعرف اليوم بما يسمي مبدأ كارتر الرئيس الأمريكي [إذا أردت السلم فاستعد للحرب] وهي نظرية دخلت ضمن الأدبيات السياسية للحرب بما فيه دولة سويسرا التي لم تخض حربا منذ مأتي عام هذه المصطلحات أو المفاهيم الثلاث لها مدلولات لغوية وأحزاب عرقية واجتماعية فمثلا بالنسبة للعنف واللاّعنف قد ورد في لسان العرب أن العنف هو في الأمر و قلة الرفق به، وهو ضد الرفق ولذا يقال للرجل رجل عنيف إذا لم يكن رفيقا في أمره. لكن هذه المفاهيم أخذت بعدا آخر في المرحلة الراهنة حيث أصبحت تستخدم كمصطلحات سياسية لها مدلولها السياسي وعندما تطلق. وقد يستخدم العنف بدلا من الإرهاب وبالعكس من باب خلط المفاهيم[3]، وعموما العنف استثناء من القاعدة هذه التعريفات تعالج مشكلة العنف حيث هي ظاهرة اجتماعية سياسية ابتلي بها العنيف في مواجهة القوي؛ لكن في الحقيقة وتختلف وجهات النظر في تعريف العنف فالتاريخ أعظم سجل دون للإنسانية على صفحاته أغرب أساليب العنف والعدوان والتعسف التي أنتجها الفرد والجماعات ضد الشعوب. والمجتمعات وما اقترفته المجموعات المتطرفة أو التي آمنت بسلوك العنف كموصل لأهدافها وتحقيق مبتغاها. إلا أننا سنحاول جاهدين دراسة العنف كظاهرة من الظواهر التي برزت على مصرع الحياة بشكل يستحق البحث من مختلف التخصصات، إن ما يثير الدهشة هو أن صورة العنف أصبحت أكثر شدة وحدة وأكثر تكرارا فمن بين التعريفات الإجرائية للعنف أنه موظف لتغيير وضع سياسي معين. ومن بين النظريات التي تعاملت معه كسلوك فردي وحاولت تعريفه على هذا المستوى مدرسة التحليل النفسي فترى:" أن السلوك العدواني هو العنف وإيذاء الغير أو الذات وأشكال العنف الجسدي هو العدوان باللفظ الكبت ومختلف السلوكات المتوقع حدوثها تحت هذا المفهوم الناتج عن غريزتي التدمير والموت افتراض بادئ ذي بدء بوجود دوافع غريزية متعارضة أهمها اثنتان. الأولى تستهدف حفظ

الغرض والثانية حفظ النوع[4]، أما "بولا هاين" فتري أنه في حالة القصوى العمياء يحدث نوع من الكارثة التروية ولسبب ما ينكسر الدمج بين التروتين الأساسيتين وتستيقظ نزوة الموت داخل الشخص إلى درجة قصوى من دون إمكان تلطيفها بتدخل نزوة الحياة فعند إحساس الفرد بالدنيا –استصغار– الناس له لإمكانياته تتحرك دفعاته ساعيا إلى الانتقام لنفسه من المجتمع.

الاتجاه الإنساني:

رائد هذا الاتجاه عالم النفس "أبرا هام ماسلوا" حيث يري أن الانسان يتأثر على نحو واضح بسلسلة من الدوافع التي تتجاوز الحاجات الغريزية[5] كما أكد عليها التحليليون، أو السلوك المكتسب والتعلم بالنموذج كما عرضه السلوكيون، فماسلوا يعيب على السلوك النفسي تجاهله التنوع الأساسي للإنسان و يطرح رأيه في إطار هرمي الشكل، فعندما تلبي الحاجات الأساسية المبكرة بتحرر الإنسان لتنمية الحاجات ذات المرتبة الأعلى والتي تضعه في مستوي الحيوانات و يتكون الهرم الذي يبدأ بالحاجات الأساسية أولاً من الحاجات الفيزيولوجية مثل الأكل.

- حاجات الأمن مثل تحقيق الأمان و الطمأنينة.
- الحاجات الاجتماعية مثل القبول الاجتماعي والتماسك.
- حاجات الأنا(الذات) مثل احترام الذات و المكانة.
- الحاجات الإنجاز الذاتي مثل الإبداع، الابتكار، التبصر.

ويعتقد ماسلوا أن الإخفاق أو الفشل في إشباع الحاجات الفيزيولوجية يمنح الفرد تنمية الحاجات اللاحقة أي الحاجات الاجتماعية وحاجت إشباع الذات ويري أن العنف والعدوان إنما هو سلوك يلجأ إليه الإنسان لتحقيق حاجات أساسية. وأن السبب في إحراز الأطفال الفقراء تقدما تربويا دون المستوي المطلوب يؤكد من سبب التفاوة في إحراز التقدم بين الدول الفقيرة والغنية، وهو الفصل في إشباع الحاجات الأولى[6] من خلال هذا التعريف يبدوا جليا أن العنف وحدة فردية حيث مثله على صعيد أول الإنسان كفرد والتاريخ يثبت أول سلوك عنيف عاشه المخلوق الأول فوق هذا العالم. والملاحظ أن جل المفاهيم التي حاولت أن تعرف العنف أو تعالجه ارتكزت بصفة مباشرة أو غير مباشرة على الإديولوجية أو السياسة وأجمعت في محور أساسي للعنف إلاّ أن علم النفس جسده كسلوك عدواني يبرز من ذات الشخص سواء لدوافع شخصية أو اجتماعية.

فالمرء يسعى دوما إلى امتلاك القوة والسيطرة على الرمز الكوني يشتي الوسائل فيريد في كثير من الأحيان أن يحاكي القوة الإلهية كما كان يعتقد فرعون على الرغم من كون القوة التي كان يمتلكها ما هي إلاّ جزء مثيل من قوة الخالق و ضئيل جدا مصغر للقوة المثالية لأن مستواها لا يتعدى الرمز العادي ولهذا يضل المخلوق البشري في صراع مع الطبيعة ومع ذاته فحين يصارع الطبيعة بامتلاكه الآلة المادية يجد نفسه فارغا وهو بحاجة إلى قوة تزكي أو تؤمن امتلاكه للمادة الطبيعية وفي هذه الحالة تكون لذات محور التأمل فتلجأ إلى قوة خارجية (كالإله أو الآلهة) كما يبين ذلك "مارسيا إلياد":" هذا أمر مسلم به لأن جميع أوجه السلوك البشري قد بدأها الآلهة أو الأبطال المخلقون في ذلك الزمان فهؤلاء لم يرسلوا قواعد مختلف الأعمال وطرائق الموت وممارسة الحب والتعبير عن النفس إنما الحركات التي تبدوا لا أهمية لها أيضا في أساطير الأستراليين. اتخذ بطل التحذير وضعا خاصا ومازال سكان استراليا يحاكوا الوضع النموذجي هذا القبيل لا يتفق مع الخبرة الدنيوية للحياة عند الإنسان غير الديني[7]. جميع الخبرات الحياتية سواء أكانت غذاء، عملا أو لهوا قد تجردت من القدوسية بعبارة أخرى جميع أفعاله الفيزيولوجية باتت عارية لمعناها الروحي؛ وبالتالي من بعدها الإنساني حقا نلاحظ الدور الفعال الذي يلعبه الدين في تهذيب سلوكات الإنسان والسمو به من درجة الحيوانية إلى درجة الإنسانية وهذه العلاقة بين الإنسان والدين تخلق سلوكات إما متطابقة مع الشرع وإما متباعدة، حسب القدرات المعرفية للأفراد[8]، إلا أننا يمكن أن نلاحظ تلك الفكرة الميثولوجية التي تصاحب التفكير الفردي أو الجماعي في الأوساط الشعبية، فإنها تؤثر بشكل واضح في المعتقد الشعبي وتحاول أن تكون حلقت وصل بينه وبين ماضيه "الطبيعي" وحتى يكون لها امتداد ثقافي فإنها تعمل دوما في إطار ديني أو إلهي[9].

ففكرة تعدد الآلهة عند المجتمعات ظلت مسيطرة زمنا طويلا وكان هدف الديانات هو توحيد لله ففي هذه الحالة يقول الدكتور نور الدين طوالبي:«كانت غالبية السلوكات الطقسية الموروثة عن المذهب الإحيائي، تعارض هذه الوحدانية.» ويؤكد أن الإسلام كان أكثر عنفا من اليهودية والمسيحية إزاء العبادات الطقسية.

إلا أننا نلاحظ في الحياة الاجتماعية امتداد لهذه المعتقدات وعند مختلف شرائح الطبقة الشعبية، هل يمكننا القول والتسليم بأن نزوع الإنسان للبحث عن القوة الإلهية هو الذي يدفعه إلى التمسك بهذه المعتقدات؟

أم ضعفه النفسي وعدم تمكنه من السيطرة على نوازعه النفسية وبالتالي عدم اكتسابه مكانة في محيطه الاجتماعي؟

الإجابة عن هذه الأسئلة لا بد أن نعرف هذا المقدس الشعبي وعلى حد تعبير"كلود ليفي ستراوس" في كتابه الفكر البري: أن أحد المفكرين البدائيين قال" لكل شيء مقدس موضعه"

فالقداسة هي جزء من الذات وهذا ما يبحث عنه المتصوف أثناء جهاده في الدنيا كما أنه يحاول أن يحاكي في قداسته المثال، والترفع عن المألوف عن الناس، فمن بين الأولياء من يحيط نفسه بمجموعة من الحكايات الأسطورية حتى تكسبه قداسة وهو في ذلك يحاكي النموذج الأول للطقس أي تعدد الآلهة أما النوع الثاني من الأولياء فصنائعهم تشهد على قدرتهم ومدى تحكم في المادة الطبيعية وذلك لأنهم في درجة فوق المادة. وهذا ما يطبع عليهم صفة القداسة حتى بعد وفاتهم. وبالتالي يكون هذا الولي بمثابة رمز مقدس في الأوساط الشعبية وتقوم هذه الجماهير بالاحتفال به كل سنة. كما أنها تقدم له القرابين والهدايا، ويطلب منه الرضا والإشفاء من الأمراض و تعامله معاملة الحي الرازق. وتقرب في تعامله معه نشاطه الحيوي وهو حي لتضفي صفة الخلود مع العلم أن هذه الصفة لا تكون إلا لله.

ولكن الرمز المقدس قد اكتسبها من خلال الاعتقاد الذي ساير التاريخ ودخل في دواليبه وهذا ما يمكن أن نسميه العنف الفكري الاعتقادي[10].

وبمجرد التفكير في إلغاء هذا المقدس سيؤدي إلى تدمير نظام الثقافة الشعبية إلى تعتبره رمزا موروثا دخل في دواليب حركة التاريخ الشعبي وقد تتوارث بركة الشيخ أو الولي جميع الأسر وورثته لأجيالها على أساس أنها تراث ثقافي لا بد من الحفاظ عليه من جيل إلى جيل[11]. إذن ما يمكن أن نخلص إليه كجواب على السؤال الأول أن الشيخ أو الولي لفراغ طبيعي في امتلاكه للوسائل المادية وقصورها لتعبير عن محيطها كان يحاكي في مجاهدته الصورة المثلى بالتقرب إلى الله أكسبته هذه المحاكاة وبالتالي مكنته من التحكم في مسار السلوك الاجتماعي والثقافة الشعبية حين ارتبطت بالفرع الميثولوجي، كما أنه أصبح يساهم في تدعيم النظام حين يملأ المكان المخصص له فالوالي يعتبر في كثير من المناطق دور المنظم للحياة الشعبية، فيقوم بفك النزاعات الاجتماعية التي تقوم بين الأفراد أو بين الجماعات، فكم من تطاحن بين قبيلة وأخرى لم تستطع أي هيئة فصله إلا بحضور شيخ الزاوية. فمن كلام معانيه ميدانية لمدينة ندرومة نؤكد أن المنطقة كانت تشهد نزاعات عديدة بين قبائلها وذلك لأن مصادر العيش والماء

على الخصوص كانت شبه مفقودة في هذه المنطقة هذا ما دفع بالطبقات الشعبية للصراع لكن مكانة الشيخ كانت دوما تتدخل لفك هذه السلوكات العنيفة.

وما يزال أهل هذه المناطق يذكرون صنيع هؤلاء الشيوخ الذين و على الرغم من تطور البيئة الخارجية لنظام الشعبي وعلى الرغم من التطور المعرفي إلا أن هذا الاعتقاد لا يزال يؤثر على الفكر الشعبي فلم تتمكن العوامل المتناحرة في الحياة إلا أن تصنع من هؤلاء الشيوخ واسطة بين ما هو سماوي ودنيوي للفرد فإنه يلـــجأ إلى أضرحة هؤلاء الشيوخ للاستغاثة منهم وهذه قمة التـــعسف الفـــكري أو الحضاري، أن يمتد زمن العبودية إلى ضريح.

أما فيما يخص التمادي في الاستغاثة بهذا الضريح فإننا لاحظنا من خلال معاينة ميدانية لأضرحة أولياء بمدينة وهران (بطيوة) ومن خلال زيارتنا لزاوية سيدي البوعبدلي لاحظنا أن قبور الأولياء مغطاة بزراب ومرتفعة على سطح الأرض و قد بنيت هذه القبور بالأسمنت والزليج فأثار هذا المظهر استفسارا هل التقديس دفع بهم إلى زركشة هذه الأضرحة أم للحفاظ عليهم فأجابنا "المقدم" أن الزوار في أثناء مجيئهم للتبرك بهؤلاء المقدسات يرغبون في أخذ شيء من التراب تبركا أو يقومون بأخذ شيء من التراب من على ضريح الولي ويضعونه على عضو المريض حتى يشفي الورم هذا ما أدى إلى تعري هذه الأضرحة وبروز بعض أعضاء الجثة، فالتصرف الأعمى للأفراد دفعهم إلى نبش ما قد حرم الله دون قصد و لكن لإرضاء نوازعه التي لم تتمكن أن تتفاعل مع ظروف حياته أو لم يستطع أن يتخلى عن ذاك الموروث الثقافي الذي نقل إليه جملة دون أي مراجعة أو تمحيص دفع به لأن يظهر بشكل الفرد العنيف الذي لم يتوان من الخضوع في دائرة العنف السلوكي الذي ارتكبته على مقدس يعتقدون فيه لا شعوريا ومقدس لا يحتاج إلى وساطة وقد ارتكب تجاهه كل أنواع العنف والتدمير. فعلي ما يبدو أن العنف الفكري هو الحلقة التي تدفع بالفرد الشعبي إلى ممارسة العنف باعتباره سلوك اعتيادي في حالة ما طغى على السلوك العادي والفراغ الروحي هو الممول الرئيسي لصدور هذا السلوك؛ وتعاطيه في الأوساط الشعبية لكن يظل الدين هو الفاصل الأساسي و المنطقي لتعديل أي سلوك كان فالدين لوحده القادر على التصدي لأي فكر تخريبي أو إرهابي كان أو عدواني.

الهوامـــش

1-مصطفي خجازي التخلف الاجتماعي معهد الإنماء العربي بيروت **1976 ص265**.

2-الامام الشرازي: الحكم الاسلام مؤسسة الوفاء بيروت 1976 ص50-55

3-خبير البصري اللاّعنف مدخل إلى المفاهيم و الرؤى مجلة النبأ العدد 54 لسنة 2001.

4-سيغموند فرويد الموجز في التحليل النفسي ترجمة سامي محمود" دار المعارف القاهرة" ص 149.

نفس المرجع ص 152

5-الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية

الملتقى الوطني لأدرار سنة 1989. ص15

6-أليا د مارسايا المقدس والدنيوى نرجمة نهاد خياط .

الطبعة الأولى دمشق 1987 ص 130.

7-حساب بكر أسباب العنف السياسي و دوافعه مجلة الفكر العربي العدد 93 ص18.

8-فخرى الدباغ السلوك الإنساني مطبعة الكويت 1986 ص32-36.

9- فتحي محمد إبراهيم / مصطفي حمدي الشنواني

مناهج البحث في علم الإنسان دار المريخ الرياض 1988 ص68-71.

10-كلود ليفىستراوس

ترجمة نظير جاهل الفكر البري المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، ط1987/2 ص 140-145.

11-الدكتور نورالدين طوالبي

الدين و الطقوس و التغيرات ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1988 ص134.